

الكامل في التاريخ لابن الاثير (ت ٦٣٠هـ/١٢٣٢م)

مصدرا لدراسة خطط الموصل

في العصر الاتابكي (٥٢١-٦٦٠هـ/١١٢٧-١٢٦١م)

أ. م. د. ميسون ذنون العبايجي

مقدمة

يتناول البحث دراسة خطط الموصل في العصر الاتابكي والتي ورد ذكرها في كتاب "الكامل في التاريخ" لابن الاثير، وتأتي أهمية البحث كونه قد عاش معظم حياته في الموصل، وهو أيضا معاصر لعدد من حكام الدولة الاتابكية في الموصل (٥٢١-٦٦٠هـ/١١٢٧-١٢٦١م)، إذ عاصر ثلاثة منهم، وبالتالي فهو شاهد عيان على إحداث عصره، إذ يعد كتابيه التاريخ الباهر في الدولة الاتابكية، والكامل في التاريخ، من المصادر التاريخية المهمة التي تناولت بالتفصيل تاريخ الدولة الاتابكية في الموصل، وعلى الرغم من تركيزه على الناحية السياسية في الكتابين، إلا أننا نجد في ثناياها العديد من المعلومات الخاصة بخطط مدينة الموصل لا تذكرها مصادر تاريخية أخرى معاصرة له، إذ أنه المؤرخ الوحيد الذي أرخ لهذه الدولة، فضلاً عن ذلك فإن مدينة الموصل تتميز بظاهرتين حضاريتين ذلك أنها قديمة وحديثة في الوقت ذاته، فقديمة ونعني بها مدينة نينوى التي كانت عاصمة للأشوريين، وكان يطلق عليها الحصن الشرقي، والموصل وهي المدينة التي استحدثت بعد الفتح الإسلامي لها (١٦ أو ١٧هـ/٦٣٧ أو ٦٣٨م)، وكان يطلق عليها الحصن الغربي، وعندما فتحها العرب المسلمون في العصر الراشدي تم بناء دار الإمارة، والمسجد الجامع، وخطت الدور السكنية، وفي عهد الخليفة الراشدي عثمان بن عفان أسكن الموصل (٤٠٠٠) من قبائل الأزد وطئ وغيرها من القبائل، وأصبحت بذلك مأهولة بالسكان، وبعد مجئ الأمويين شهدت الموصل حركة عمرانية كبيرة، حيث أنشئ الجامع الأموي (الجامع العتيق)، وتوسعت الأسواق، وحفر فيها نهر لإيصال الماء لأهلها، وهكذا استمرت بالتطور العمراني على الرغم من أنها مرت بفترات صعبة أدت إلى تراجعها عمرانياً، وبخاصة بعد تأسيس الإمارة العقبيلية (٣٨١-٤٨٩هـ/٩٩١-١٠٩٥م) في الموصل، ومن ثم السلاجقة (٤٨٩-٥٢١هـ/١٠٩٥-١١٢٧م) وقد شهدت مدينة الموصل تطوراً عمرانياً واضحاً بعد قيام الدولة الاتابكية في الموصل، وهناك نص غاية في الأهمية يتحدث عن هذا التطور أورده ابن الأثير نقلاً عن والده الذي عاصر أوائل حكام هذه الدولة بالقول: "حكى لي والدي قال: رأيت الموصل

التي هي أم البلاد في أول أيام الشهيد وأكثرها خراب، فكان الخراب من محلة الطبالين إلى القلعة والى دور السلطنة، وكانت العرصة ثرى من قريب مسجد التركماني، وهو قريب من الطبالين، وكان الجامع العتيق أيضا بلا عمارة البتة...^(١). فهذا النص يعد من أهم النصوص التاريخية الذي يعكس حالة مدينة الموصل العمرانية قبل مجئ الدولة الاتابكية، ومما تجدر الإشارة إليه أن البحث سوف يقتصر على ما ذكره ابن الأثير من معلومات خاصة بخطط الموصل فقط، على الرغم من وجود بعض النقص في تلك الخطط كالأسواق مثلا والتي لآياتي على ذكرها، ولا يوجد تفصيلات عند ذكره لخطة ما، لذا فعند تناولنا لأي مَعْلَم عمراني أو خطة لا بد من الرجوع إلى بدايات التأسيس الأولى وعلى هذا الأساس فسنسنعين بالمصادر التاريخية الأخرى لإعطاء صورة أولية أكثر وضوحا لهذه الخطط. وكانت مصادر معلوماته الخاصة بتلك الخطط تتركز على مشاهداته فقط، خاصة إذا ما علمنا أن ابن الأثير كان اعتماده على المصادر المكتوبة قليلاً جداً في هذه المدة، وهذا ما نراه واضحاً، لأن معظم معلوماته عن الدولة الاتابكية كانت شفوية، وعند الرجوع إلى كتابه الآخر الباهر سنرى أن معظم معلومات الكتاب هي شفوية نقلها عن والده وهذا ما صرح به في مقدمة الكتاب، ومن ثم اورد المعلومات ذاتها في كتابه الكامل ووفق المعلومات الخاصة بخطط الموصل والتي وردت في كتاب الكامل يمكن تقسيمها حسب المواضيع الآتية:

أولاً: الأنهار:-

فالنهر الوحيد الذي جاء ذكره في الكامل هو نهر الحر والذي تم حفره في زمن الخليفة الأموي هشام بن عبد الملك (٦٥هـ-٨٦هـ/٦٨٥-٧٠٥م)، وبالتحديد عندما كان الحر بن يوسف الثقفي واليا على الموصل سنة (١٠٦هـ/٧٢٤م) ولذلك سمي النهر باسمه، وكان مصدر ابن الأثير في معلومات هذا النهر هو كتاب "تاريخ الموصل" لأبي زكريا الأزدي (ت ٣٣٤هـ/٤٩٥م) إذ أعطى الأخير معلومات وافية عن مراحل حفر النهر، فذكر الأزدي أن سبب هذا الحفر هو أن الحر رأى امرأة تحمل جرة، وهي تحملها قليلاً ثم تستريح وذلك لبعده نهر دجلة عن المدينة، عندها كتب الحر إلى الخليفة هشام لهذا الأمر، وعلى ضوء ذلك أمر الخليفة بحفر النهر^(٢)، وقد استغرق عمل النهر عدة سنوات، وقد توفي الحر سنة (١١٣هـ/٧٣١م) ولم يكتمل حفر النهر، فجاء بعده الوالي الوليد بن تليد العبسي وواصل العمل فيه وأتمه سنة (١٢١هـ/٧٢٩م)، وبلغت نفقته حوالي ثمانية آلاف درهم^(٣) بينما ذكر الأزدي كلفته ثمانية آلاف ألف درهم^(٤)، والأصح رواية الأزدي لأنه يبدو من عدد السنين التي حفر فيها النهر بلغت عدة سنوات وهذا مناسب لما ذكره الأزدي. ويمكن أن نتناولها على النحو الآتي:

أولاً: السور:-

وردت إشارات عديدة في المصادر التاريخية عن السور الذي كان يحيط بمدينة الموصل، فكانت الموصل قبل مجئ العرب المسلمين إليها عبارة عن حصنين الغربي وهو الموصل الحالية، والشرقي وهو نينوى، وهذا يدل على أن طبيعة نشوءها كان عسكرياً هجومياً لا دفاعياً لذلك لا تشير مصادر التاريخ الإسلامي المبكرة إلى وجود سور للمدينة.

وهناك إشارات عدة تبين أن السور يعود بناؤه إلى عصر الدولة الأموية، فذكر قدامة بن جعفر أن سعيد بن عبد الملك الذي تولى إدارة الموصل في أثناء خلافة أبيه عبد الملك بن مروان هو الذي أحاطها بسور^(٥)، في حين ذكر الأزدي أن محمد بن مروان هو الذي بنى سور الموصل بقوله "ومحمد بنى سور الموصل سنة ثمانين بلا خلاف بين من يعلم من أهل الموصل"^(٦). وعلى الرغم من اختلاف الروايات حول تاريخ بناء السور، إلا أنها تشير إلى أن هذين الواليين قد أسهما في بناء سور المدينة خلال العصر الأموي، وقد تعرض السور للهدم مرتين في عصر الدولة العباسية، وبخاصة في عهد الخليفة هارون الرشيد (١٧٠-١٩٣هـ/٧٨٦-٨٠٩م) بسبب حركة الخوارج، فالأولى كانت سنة (١٧٧هـ/٧٩٣م)^(٧) والثانية في سنة (١٨٠هـ/٧٩٦م)^(٨)، وهناك إشارة مهمة جداً وردت لدى ابن الأثير وهي أن الموصل بقيت بدون سور، إذ ذكر ما نصه: "وكانت الموصل أولاً بغير سور"^(٩) إلى أن جاء العقيليون فاهتم بحكامها ببناء المدينة ومنهم شرف الدولة مسلم بن قريش (٤٥٣-٤٧٨هـ/١٠٦١-١٠٨٥م)، ولكنه لم يعمل له فصيلاً وخنديقاً، وكان قليل الارتفاع^(١٠)، وعند مجئ السلاجقة قام حاكمها جكرمش (٤٩٥-٥٠٠هـ/١١٠٦-١١١١م) بإكمال النواقص التي كانت في السور العقيلي، فبنى له فصيلاً وخنديقاً ولكنه ليس بالعميق^(١١)، أما الاتابكة فإنهم اهتموا اهتماماً كبيراً بالسور فقال ابن الأثير بصدده ذلك: "فلما ملكها الشهيد [أي عماد الدين بن زنكي] وحصرها المسترشد بالله على ما ذكرناه سنة سبع وعشرين وخمسائة ثم عاد عنها فآتم سورها وخنديقها"^(١٢)، فصار للمدينة سوران العقيلي والاتابكي، وهناك إشارة في الباهر على درجة من الأهمية وهي أن السور الذي بناه الاتابكيون والخنديق بقيا على حالهما ولم يتعرضا للتغيير حتى عصر المؤلف فقال: "فهذا السور وهذا الخندق هما على الحال التي عملت في الأيام الشهيدية"^(١٣). وكان لهذا السور عدة أبواب منها:

(١) باب الجسر: وهو من أبواب الموصل القديمة وسمي بباب الجسر نسبة إلى الجسر الذي تم إنشاؤه في عصر الدولة الأموية وبالتحديد عندما تولى مروان بن محمد إدارة الموصل، وهذا الجسر يربط بين الموصل ونيوى وهو قائم إلى وقتنا الحاضر، وقد ورد ذكره لدى ابن الأثير في أثناء حديثه عن الجامع المجاهدي فقال: "وفيها قرب الجامع الذي بناه مجاهد الدين قايماز بظاهر الموصل من جهة باب الجسر...."^(١٤)

(٢) باب المشرعة: وقد ورد ذكره لدى ابن الأثير عند حديثه عن الرباط الذي بناه سيف الدين غازي بن عماد الدين زنكي (٥٤١-٥٤٤هـ/١١٥٢-١١٥٥م) قائلاً: وبنى رباطاً للصوفية بالموصل على باب المشرعة^(١٥)، ويقع هذا الباب على نهر دجلة، جنوبي دور المملكة (قره سراي) التي بناها الاتابكيون، وآثاره باقية إلى الوقت الحاضر وموقعه في باب شط المكاوي^(١٦).

(٣) الباب العمادي: وهو من الأبواب التي تم فتحها في العصر الاتابكي ومؤسسه عماد الدين زنكي والذي نسب إليه، ويؤدي هذا الباب من الميدان إلى ظاهر الميدان (الربض الأعلى)^(١٧).

(٤) باب سنجار: وهو من الأبواب القديمة في سور الموصل، وقد ورد ذكره لدى الأزدي، وقد جدد الباب في فترات متباينة ومنهم بدر الدين لؤلؤ^(١٨).

(٥) باب كندة: ورد ذكره لدى ابن الأثير في حوادث سنة (٥٧٨هـ/١١٨٢م) أثناء حصار صلاح الدين الأيوبي للموصل فقال: "نزل صلاح الدين محاذي باب كندة"^(١٩)، وجاء ذكره في كتابه الآخر الباهر عند حديثه عن أعمال عز الدين مسعود بن قطب الدين قائلاً: "إن من أعمال عز الدين مسعود بن قطب الدين انه فتح الباب الغربي بين باب كندة وباب العراق"^(٢٠)، ويعتقد أن باب كندة هو باب البيض الحالي^(٢١)، وهناك رأي آخر وهو أن باب كندة هو غير باب البيض في الوقت الحالي بدليل النص الذي ورد في الباهر لأنه لا يوجد باب بين باب البيض وباب العراق والمسافة قليلة وهي تتجه إلى الجنوب وعليه ربما يكون باب كندة في موقع رأس الجادة الحالي أو قريب منه، ويكون باب البيض الحالي هو الباب الغربي لأنه أقرب إلى الغرب فهو في الجنوب الغربي^(٢٢).

(٦) الباب الغربي: وهو من الأبواب التي ورد ذكرها في الباهر أيضاً بقوله: "أن من أعمال عز الدين مسعود بن قطب الدين انه فتح الباب الغربي" وحدد موقعه بين باب كندة وباب العراق" وبين أهميته قائلاً: "ولم يكن هناك باب فجاء حسناً وانتفع به أهل ذلك الصقع"^(٢٣) وذكر الهروي (ت ٦١١هـ/١٢١٤م) أن باب المدينة الغربي هو باب الميدان^(٢٤).

(٧) باب العراق: ويؤدي إلى الجهة الجنوبية، ولم تزل المحلة المجاورة له تسمى محلة باب العراق^(٢٥).

(٨) باب القصابين: وهو من الأبواب القديمة ويؤدي إلى جنوب الموصل، فإن سوق القصابين يقع ظاهر الموصل جنوباً^(٢٦).

ثانياً: القلعة:

القلعة بناء قديم تنشأ عادة لأغراض عسكرية دفاعية ، ولا نعرف بالضبط تاريخ بناء القلعة لكن هناك عدة إشارات، إذ ذكرت في العصر العقيلي، وذلك في حوادث سنة (٤٥٠هـ/١٠٥٨م) عند الحديث عن البساسيري وقريش بن بدران العقيلي اللذين هاجما الموصل بعد أن فارقتها إبراهيم ينال، فحاصرا المدينة لمدة أربعة أشهر، ولم يرحلا عنها إلا بعد أن خاطبهما صاحب إربل فخرجوا من القلعة...^(٢٧) وقد تردد ذكرها مرات عدة خلال الحكم الاتابي في الموصل حيث أصبحت من المؤسسات الإدارية المهمة ولها موظف خاص يسمى(زدار القلعة) أي مستحفظ القلعة ويتمتع بصلاحيات كبيرة جدا يشرف عليها ومسؤول عن حفظ امن المدينة من أي هجوم خارجي. وقد وصفها الرحالة ابن جبير عند زيارته للموصل قائلاً: "وفي أعلى البلد قلعة عظيمة قد رص بناؤها رصاً منتظماً سور عتيق البنية مشيد البروج وتتصل به دور السلطان وقد فصل بينهما وبين البلد شارع متسع من أعلى البلد إلى أسفله"^(٢٨). ويحيط بالقلعة في العادة سور محكم البنيان وعليه بروج يحيط به خندق يفصل القلعة عما يجاورها من الأراضي وكان لها عدة أبواب منها:

أ: باب القلعة: ويؤدي من القلعة إلى الميدان^(٢٩)

ب: باب السر: ويؤدي من القلعة إلى النهر ولا يفتح إلا عند الحاجة، وجاء ذكره عند ابن الأثير أثناء حصار صلاح الدين الأيوبي للموصل للمرة الأولى فقال: " أن مجاهد الدين اخرج في بعض الليالي جماعة من باب السر الذي للقلعة ومعهم المشاعل فكان ادهم يخرج من الباب وينزل إلى دجلة مما يلي عين كبريت"^(٣٠).

رابعاً: الأرباض:

الربض وجمعه أرباض، وهو في الاصطلاح أساس المدينة والبناء وما حوله من الخارج^(٣١)، ووردت في لسان العرب عدة معان للربض فقال ابن منظور بان الربض وما حول المدينة أو القضاء أو حول المدينة، وأحياناً ترد بفتح الباء ومن هنا ما حول المدينة أو القضاء حول المدينة بالأبنية التي تكون حول المدينة وتحت القلاع^(٣٢). فكان لمدينة الموصل ربضين هما:

١- الربضُ الأعلى:

ويقع شمال المدينة خارج السور ويمتد من باب سنجان إلى الأرض التي تطل على النهر وكان يضم قصور الأمراء والدولة^(٣٣)

٢ - الرِبْضُ الْأَسْفَلُ:

وهو أكبر من أرباض المدينة حيث كان فيه المساجد والمدارس والأسواق والحمامات والفنادق، ويقع خارج السور من الأرض الممتدة من ساحل نهر دجلة إلى قرب جامع النبي شيت في الوقت الحاضر^(٣٤)، ويسمى أيضا بالربض الجنوبي، وقد وصفه ابن جبير بالقول: "وللموصل ربض كبير فيه المساجد والحمامات والفنادق والأسواق به مسجد جامع على شط دجلة تدور به شبابيك حديد وأمامه مارستان^(٣٥)"

خامساً: الميدان:

ويقع الميدان أمام دور المملكة ويمتد إلى باب سنجار ومحصور بين السور العقيلي والسور الذي بناه عماد الدين زنكي من القلعة إلى باب سنجار، وكان أرضا مكشوفة فيها من العمارة إلا الكشك يكون فيه الحاكم عند تدريب الجيش^(٣٦)

سادساً: دار الإمارة:

جرت العادة لدى العرب المسلمين بعد فتح أية مدينة أن يبدأوا أولا بتأسيس المسجد الجامع ثم بناء دار الإمارة إلى جواره، وهي من الأمور الأساسية التي يراعونها في تخطيط معظم المدن التي ينشئونها فمن ذلك دار الإمارة الذي يكون ملاصقا للمسجد الجامع. فخلال العصر الراشدي قام واليها عتبة بن فرقد السلمي سنة (١٧هـ/٦٣٨م) ببناء دار الإمارة وبنى إلى جانبه من الجنوب المسجد الجامع الذي عرف فيما بعد بالجامع الأموي^(٣٧)، وقد أعاد الأمويون بناء هذه الدار القديمة وتوسيعها لاسيما ف عهد واليها مروان بن محمد واتخذ بينها وبين الجامع بابا يؤدي إلى ممر طويل يصل بين الدار والجامع^(٣٨). ووردت لدى ابن الأثير العديد من الإشارات عن دار الإمارة الذي في الموصل في مختلف مراحلها التاريخية ما عدا في العصرين الراشدي والأموي. فهناك إشارة إلى ذلك خلال العصر العباسي وبالتحديد سنة (١٣٢هـ/٧٤٩م) عندما قلد أبو العباس السفاح أخاه يحيى بن محمد ولاية الموصل في سنة (١٣٢هـ/٧٤٩م) فقال ما نصه: "واستعمل عليهم أخاه محمد وسيره إليها في اثني عشر ألف رجل فنزل قصر الإمارة بجانب المسجد الجامع^(٣٩)، ويبين هذا النص أن دار الإمارة كان موجودا أيضا خلال العصر الأموي، ما عدا أن التسمية اختلفت من دار إلى إمارة إلى قصر الإمارة ولربما أجريت عليه تغييرات خلال العصر الأموي بحيث تم توسيعه وأطلق عليه قصر الإمارة^(٤٠) وأما خلال الحكم الحمداني للموصل فإن دار الإمارة أيضا كان موجودا، حيث ورد لدى ابن الأثير في حوادث سنة (٣٧٩هـ/٩٨٩م) ما نصه: "وثار أهل الموصل والأتراك فنهبوهم وخرجوا إلى بني حمدان وخرج الديلم إلى قتالهم فهزمهم المواصلة وبنو حمدان وقتل منهم خلق كثير واعتصم الباقون

بدار الإمارة^(٤١)، وفي إثناء حكم العقيليون للموصل وردت إشارة إلى دار الإمارة أيضا، ففي سنة (٤٤٢هـ/١٠٥٠م) عندما قبض زعيم الدولة أبو كامل بركة بن المقلد (٤٤٢-٤٤٣هـ/١٠٥٠-١٠٥١م) على أخيه قريش بن بدران (٤٤٣-٤٤٣هـ/١٠٥١-١٠٦١م) شرط عليه أن يسكن دار الإمارة في الموصل^(٤٢). وكذا الحال بالنسبة إلى العصر السلجوقي، فبعد أن سيطرة قلج أرسلان على الموصل سار عنها إلى جاولي سقاوو ليحاربه وجعل ابنه ملكشاه في دار الإمارة^(٤٣). أما في العصر الاتابكي فإن دار الإمارة أصبحت تسمى بدور المملكة^(٤٤) أو دور السلطنة^(٤٥)، وتقع على دجلة، حيث تجاور القلعة وتقابل الميدان، ولم تزل بقاياها تعرف بـ(قره سراي)^(٤٦)، فكانت دور المملكة من الدور الكبيرة التي تضاهي دور الخلفاء والسلطين^(٤٧).

سابعاً: الجوامع:

من دون شك أن الموصل عندما تأسست كان المسجد الجامع هو الخطة الأولى التي أسست أولاً من قبل المسلمين كما هو الحال مع باقي المدن التي أسسها العرب المسلمون، فكان من أهمها:

أ: الجامع الأموي (الجامع العتيق):

وهو أقدم جامع في مدينة الموصل، تم تشييده بعد الفتح الإسلامي للمدينة، وكان يسمى في البداية بالمسجد الجامع، حيث كان من عادة العرب الفاتحين بعد تحرير أو فتح أي مدينة أن يقوموا ببناء المسجد الجامع وبجانبه دار الإمارة. ويرجع تاريخ بناء المسجد الجامع إلى العصر الراشدي، حيث ذكر البلاذري أن الخليفة عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) عزل عتبة بن فرقد السلمي وعين بدله هرثمة بن عرفة الباري فاختر الموصل واسكنها العرب ثم مصرها وبنى المسجد الجامع^(٤٨). وشهد هذا المسجد العديد من عمليات التوسيع والبناء خلال العصر الأموي عندما كان مروان بن محمد والياً على الموصل سنة (١٢٦هـ/٧٤٣م)^(٤٩)، وكذلك في العصر العباسي حيث ذكر ابن الأثير نقلاً عن الأزدي أنه في زمن الخليفة العباسي المهدي تم توسيعه وبالتحديد عندما كان موسى بن مصعب والياً على الموصل سنة (١٦٧هـ/٧٨٤م) فهدمت الأسواق المحيطة به وأضيفت إلى المسجد الجامع^(٥٠). وذكر ابن الأثير أنه شاهد في عصره لوحاً كتب عليه تاريخ توسيع هذا المسجد قائلاً: "ورأيت لوحاً فيه ذكر ذلك وهو تاريخ توسيع هذا المسجد في حائط الجامع سنة ثلاث وستمائة وهو باق"^(٥١)، ولم نعرف شيئاً عن حالة الجامع في العصرين الحمداني والعقيلي، إلا أنه وردت إشارة لدى ابن الأثير يصف الجامع خلال العصر السلجوقي قائلاً: "فكان الجامع العتيق بلا عمارة البتة"^(٥٢)

ب: الجامع النوري:

وتذكره المصادر التاريخية باسم الجامع النوري الكبير تمييزاً له عن الجامع العتيق (الأموي) وسمي بالجامع النوري نسبة إلى مؤسسه نور الدين محمود بن زنكي^(٥٣)، وقد حدد نور الدين موضع الجامع عند زيارته فذكر ابن الأثير ما نصه: "ولما ملك الموصل خلعها على سيف الدين ابن أخيه، وأمره وهو بالموصل بعمارة الجامع النوري، وركب هو بنفسه إلى موضعه فرآه، وصعد منارة مسجد أبي حاضر فأشرف منها على موضع الجامع، فأمر أن يضاف إلى الأرض التي شاهدها ما يجاورها من الدور والحوانيت، وأن لا يؤخذ منها شيء بغير اختيار أصحابه. وولى الشيخ عمر الملا عمارته، وكان من الصالحين الأخيار، فاشترى الأملاك من أصحابها بأوفر الأثمان، وعمره، فخرج عليه أموال كثيرة، وفرغ من عمارته سنة ثمان وستين وخمسمائة"^(٥٤)، فباشر ببناؤه سنة (٥٦٦هـ/١١٧٠م)، وذلك بعد أن اشترى الأرض من أصحابها وأضاف إليها وما يجاورها من الدور والأراضي، فعمره وبذل أموالاً كثيرة، وفرغ من بناؤه سنة (٥٦٨هـ/١١٧٢م)^(٥٥) وهذا الجامع لا يزال موجوداً في الوقت الحاضر، ويعد من الجوامع المشهورة في العراق وآثاره باقية وبخاصة منارته المنحنية والتي تسمى الحدباء حيث يبلغ ارتفاعها ستين متراً، وموقعه الحالي في محلة تسمى باسمه الجامع الكبير^(٥٦).

ت: الجامع المجاهدي:

سمي هذا الجامع باسم مؤسسه مجاهد الدين قايماز ، والذي كان يشغل منصب إدارة قلعة الموصل من قبل سيف الدين غازي بن مودود بن زنكي سنة (٥٧١هـ/١١٧٥م)، وجاء ذكر هذا الجامع عند حديث ابن الأثير عن قرب الانتهاء من بناء هذا الجامع فقال: "وفيها قارب الجامع الذي بناه مجاهد الدين قايماز بظاهر الموصل من جهة باب الجسر الفراغ وأقيمت فيه الصلوات الخمس والجمعة وهو من أحسن الجوامع"^(٥٧)، وعند زيارة ابن جبير الموصل وصف هذا الجامع بالقول: "واحدث فيه بعض أمراء البلدة يعرف بمجاهد الدين جامعاً على شط دجلة ما أرى وضع جامع أحفل فيه بناء يقصر الوصف عنه، وعن تزيينه وترتيبه وكل ذلك نقش في الحجر. وأما مقصوراته فتذكر بمقاصير الجنة، ويظف به شبابيك حديد تتصل بها مصاطب تشرف على دجلة لا مقعد اشرف منها ولا أحسن"^(٥٨)، وأما في الوقت الحاضر فإنه يسمى بجامع الخضر أو الجامع الأحمر وهو اصغر مما عليه في العهد الاتابكي^(٥٩).

المدارس:

إذ يمكن القول أن الموصل قد شهدت منذ نهاية القرن (السادس للهجرة/الثاني عشر للميلاد) وبداية (القرن السابع للهجرة/الثالث عشر للميلاد) ازدهارا في الحركة العلمية، حيث أن حكام الدولة الاتابكية أنشئت العديد من المؤسسات التعليمية، وقربوا العلماء والأدباء، وأجزلوا لهم العطاء حتى أصبحت الموصل حسب وصف ضياء الدين بن الأثير "علما في رأسه نار"^(٦٠)، ولم ينته العصر الاتابكي إلا وقد انتشرت المدارس انتشاراً واسعاً، وبهذا قال الرحالة الأندلسي ابن جبير (ت ٦١٤هـ/٢١٧م) الذي زار الموصل في سنة (٥٨٠هـ/١١٨٤م) واصفاً المدارس التي كانت موجودة في ذلك العهد بالقول: "وفي المدينة مدارس للعلم نحو الست أو أزيد على دجلة فتلوح كأنها القصور المشرفة"^(٦١)، ومن ابرز تلك المدارس: المدرسة النظامية، وهي أقدم مدرسة أنشئت في الموصل في العصر السلجوقي أسسها الوزير السلجوقي نظام الملك (ت ٤٨٥هـ/١١٨٩م)^(٦٢)، وهناك العديد من المدارس التي ورد ذكرها لدى ابن الأثير في العصر الاتابكي وهي:

أ: المدرسة الاتابكية (العتيقة):-

وهي المدرسة التي تنسب إلى مؤسسها سيف الدين غازي ابن عماد الدين (٥٤١-٥٤٤هـ/١١٤٦-١١٤٩م)^(٦٣)، وهي من أحسن المدارس وأوسعها وقد جعلها وقفا على الفقهاء من الشافعية والحنفية^(٦٤)، ودرس بها أحسن الفقهاء ووردها العديد من العلماء ليدرسوا فيها.

ب: المدرسة العزية:

ومؤسسها عز الدين مسعود بن قطب الدين مودود (٥٧٦-٥٨٩هـ/١١٨٠-١١٩٣م)^(٦٥)، وقد وصفها ابن الأثير في الباهر بقوله: "وهو الذي ابنتى المدرسة الغربية [العزية] بباب دار المملكة، وهي مدرسة حسنة، جعلها للفريقين الحنفية والشافعية، وقرر للفقهاء ما ليس بمدرسة أخرى من الفواكه والحلواء، والدعوات في المواسم والأعياد، والشيرج للوقود والفحم وغير ذلك، وقرر وقفها كل أسبوع وفي الأيام الشريفة والليالي المباركة شيئاً كثيراً"^(٦٦)، وانشأ عز الدين مسعود تربة فيها دفن فيها بعد وفاته^(٦٧)، وقد شاهد المؤرخ ابن خلكان (ت ٦٨١هـ/٢٨٢م): هذه المدرسة فوصفها قائلاً: "ورأيت هذه المدرسة والتربة وهي من احسن المدارس والترب..."^(٦٨)

ت. المدرسة الجاهدية:

وتنسب إلى مؤسسها مجاهد الدين قايماز^(٦٩)، وقد ورد اسم هذه المدرسة في حوادث سنة (٥٩٥هـ/١١٩٨م)، عند حديثه عن سيرة مجاهد الدين قايماز قائلاً: "انه بنى الربط والمدارس والخانات في الطرق..."^(٧٠)، وهذا ما أكده المؤرخ ابن الساعي (ت ٦٧٤هـ/١٢٧٥م) بالقول: "وبنى جامعاً بظاهر الموصل وبنى إلى جنبه مدرسة للشافعية ورباطاً للصوفية ومرستاناً للمرضى إلى غير ذلك..."^(٧١)

الخاتمة:

يمكن القول أن كتاب **الكامل** لابن الأثير يعد مصدراً مهماً لدراسة خطط الموصل خلال حكم الدولة الاتابكية للموصل، إذ يكتسب أهمية كبيرة لكون ابن الأثير كان معاصراً لحكم هذه الدولة، وهو شاهد عيان عن تلك الخطط التي قد لا نجدها في مصدر آخر، لاسيما عند حديثه عن أبواب المدينة، وسورها، وكذلك الجوامع التي أنشئت في تلك المدة، وعلى الرغم من أن كتابه كان يؤرخ للأحداث السياسية، لكنه لا يمكن الاستغناء عنه عند الحديث عن خطط مدينة الموصل، وهناك كتابه الآخر وهو الباهر يكاد يكمل ما جاء به من معلومات خاصة بهذه الخطط، وقد كانت معلوماته مقتضبة، لكنها تشكل أهمية كبيرة في التطور العمراني لمدينة الموصل، وبخاصة تلك التي تحدثت بها عن سور المدينة في العصر العقيلي والاتابكي، فضلاً عن أن هناك نص غاية في الأهمية انفرد به ابن الأثير عن باقي المؤرخين وهو إعطاء صورة لحالة الموصل العمرانية قبل مجئ الاتابكة، وكانت مصادر معلوماته عن هذه الخطط تقتصر على مشاهدته، ومن ثم الروايات الشفوية التي نقلها عن والده.

الهوامش:

١. التاريخ الباهر في الدولة الاتابكية، تحقيق: عبد القادر احمد طليمات، (القاهرة، دار الكتب الحديثة، ١٩٦٣)، ص ٧٧.
٢. أبو زكريا يزيد بن محمد الأزدي: تاريخ الموصل، تحقيق: علي حبيبية، (القاهرة، ١٩٦٧)، ج ٢، ص ٢٨؛ عز الدين أبي الحسن علي بن أبي المكارم بن الأثير: الكامل في التاريخ، (بيروت، دار الفكر، ١٩٨٧)، ج ٤، ص ١٩٦.
٣. المصدر نفسه، ج ٤، ص ٢٤٥.
٤. تاريخ الموصل، ج ٢، ص ٤٣.
٥. قدامة ابن جعفر: الخراج وصناعة الكتابة، تحقيق: محمد حسن الزبيدي (بغداد، دار الحرية، ١٩٨١)، ص ٣٢٨.

٦. الأزدي: تاريخ الموصل، ج ٢، ص ٢٥.
٧. المصدر نفسه، ج ٢، ص ٢٨٠؛ ابن الأثير: الكامل، ج ٥، ص ٩٦.
٨. الأزدي: تاريخ الموصل، ج ٢، ص ٢٨٦.
٩. الباهر، ص ٧٨.
١٠. المصدر نفسه والصفحة.
١١. المصدر نفسه والصفحة.
١٢. المصدر نفسه والصفحة؛ الكامل، ج ٨، ص ٢٢٩.
١٣. المصدر نفسه، ص ٧٨.
١٤. المصدر نفسه، ص ٧٨، ص ٧٩.
١٥. الكامل، ج ٩، ص ١٤٩.
١٦. سعيد الديوه جي: تاريخ الموصل، (بغداد، مطبوعات المجمع العلمي العراق، ١٩٨٢)، ج ١، ص ٣٣٢.
١٧. هذا رأي الأستاذين الفاضلين يوسف ذنون والمرحوم عبد الكريم الصايغ.
١٨. الديوه جي: بحث في تراث الموصل، ص ٢٥-٢٦.
١٩. الكامل، ج ٧، ص ٣٢٤.
٢٠. سعيد الديوه جي: بحث في تراث الموصل، ص ٢٤.
٢١. احمد الصوفي: خطط الموصل، (الموصل، مطبعة أم الربيعين، ١٩٥٣)، ج ١، ص ١٦.
٢٢. المرجع نفسه والجزء والصفحة.
٢٣. الباهر، ص ٧٨؛ الكامل، ج ٩، ص ١٥٨.
٢٤. أبو الحسن علي بن أبي بكر الهروي: الاشارات إلى معرفة الزيارات، تحقيق: جانين سورديل، دمشق، (١٩٥٣)، ص ٧١.
٢٥. سعيد الديوه جي: تاريخ الموصل، ص ١٤٩.
٢٦. المرجع نفسه، ص ٢٩-٣٠.
٢٧. ابن الأثير: الكامل، ج ٨، ص ٨٢.
٢٨. أبو الحسين محمد بن احمد بن جبير: رحلة ابن جبير، (القاهرة، لبنان، دار الكتاب اللبناني، دار الكتاب المصري، د.ت)، ص ٢٢١.
٢٩. الديوه جي: بحث في تراث الموصل، ص ٨٩.

٣٠. الكامل، ج ٩، ص ١٥٨.
٣١. شهاب الدين أبي عبد الله ياقوت الحموي: معجم البلدان، (بيروت، دار صادر، د.ت)، مج ١، ص ١٠٧.
٣٢. مج ١، ص ١٠٧.
٣٣. رشيد الجميلي: دولة الاتابكة في الموصل بعد عماد الدين زنكي ٥٤١-٦٣١هـ، (ط ٢، بيروت، دار النهضة العربية، ١٩٧٥)، ص ٣١٤.
٣٤. المرجع نفسه والصفحة.
٣٥. ابن جبير: الرحلة، ص ١٦٨.
٣٦. الديوه جي: بحث في تاريخ الموصل، ص ١٣٢-١٣٣.
٣٧. احمد بن يحيى البلاذري: فتوح البلدان، (بيروت، دار الكتب العلمية، ١٩٨٧)، ص ٣٢٧؛ ابن الأثير: اسد الغابة في معرفة الصحابة، تحقيق: محمد إبراهيم و محمد احمد عاشور، (القاهرة، مطبعة الشعب، د.ت)، ج ٤، ص ٥٦٨.
٣٨. الديوه جي : بحث في تراث الموصل، ص ١١٧.
٣٩. الكامل، ج ٤، ص ٣٤.
٤٠. المصدر نفسه، ج ٤، ص ٣٤.
٤١. المصدر نفسه، ج ٧، ص ١٤٠.
٤٢. المصدر نفسه، ج ٨، ص ٥٥.
٤٣. المصدر نفسه، ج ٨، ص ٤٢١.
٤٤. المصدر نفسه، ج ٩، ص ٢٢٨.
٤٥. المصدر نفسه، ج ٩، ص ١٣.
٤٦. سعيد الديوه جي: تاريخ الموصل، ص ٣٢٩، ٣٢٨.
٤٧. المرجع نفسه، ص ٣٢٩.
٤٨. فتوح البلدان، ص ٣٢٧؛ قدامة بن جعفر: الخراج، ص ١٧٥.
٤٩. ياقوت الحموي: معجم البلدان، مج ٥، ص ٢٢٣.
٥٠. الأزدي: تاريخ الموصل، ج ٢، ص ٢٤٨؛ ابن الأثير: الكامل، ج ٥، ص ٦٩.
٥١. الكامل، ج ٥، ص ٦٩.
٥٢. الباهر، ص ٧٧.
٥٣. ابن الأثير: الكامل، ج ٩، ص ١١٠.

- ٥٤ . المصدر نفسه والجزء والصفحة.
- ٥٥ . المصدر نفسه والجزء والصفحة.
- ٥٦ . الصايغ: تاريخ الموصل، ج٣، ص١٥٤.
- ٥٧ . الكامل، ج٩، ص١٤٩.
- ٥٨ . الرحلة، ص١٦٨.
- ٥٩ . سيوفي: مجموعة الكتابات المحررة في أبنية الموصل ، تحقيق: سعيد الديوه جي، (بغداد، مطبعة شفيق، ١٩٥٦)، ص٥١-٥٦؛ سعيد الديوه جي: جوامع الموصل في مختلف العصور، (بغداد، مطبعة شفيق، ١٩٦٣)، ص٥٦-٦٩.
- ٦٠ . عبد الجبار حامد احمد: الحياة العلمية في عصر الاتابكة (٥٢١-٦٦٠هـ/١١٢٧-١٢٦٢م)، (رسالة ماجستير قدمت إلى كلية الآداب / جامعة الموصل، غير منشورة ، ١٩٨٦م)، ص٥٧-٥٨.
- ٦١ . ابن جبير: الرحلة، ص ١٦٨ .
- ٦٢ . الجميلي: دولة الاتابكة ، ص ٣١٤ .
- ٦٣ . الديوه جي: تاريخ الموصل، ج١، ص ٣٤٤ .
- ٦٤ . ابن الأثير :الكامل، ج٩، ص٢٣.
- ٦٥ . المصدر نفسه، ج٩، ص٢٢٨.
- ٦٦ . الباهر، ص١٨٩.
- ٦٧ . ابن الأثير :الكامل، ج٩، ص٢٢٨.
- ٦٨ . وفيات الأعيان، ج٢، ص٩٥.
- ٦٩ . مجاهد الدين قايماز : وهو أبو منصور قايماز بن عبد الله الزيني ، الملقب بمجاهد الدين الخادم ، كان عتيق زين الدين والد مظفر الدين كوكبوري صاحب إربل ، حيث فوض إليه زين الدين أمور إربل في سنة (٥٥٩هـ/١٦٣م) ، وانتقل إلى الموصل في سنة (٥٧١هـ/١٧٥م) ، حيث تولى إدارة قلعتها في عهد سيف الدين غازي، وعند وفاة الأخير تولى أخوه عز الدين مسعود الأول (٥٧٦-٥٨٩هـ/١١٨٠-١١٩٣م) حكم الموصل، فدبر رجال دولته مؤامرة على مجاهد الدين ، فقبض عليه سنة (٥٨٩هـ/١١٩٣م) ، ثم ظهرت الحقيقة فأعاده عز الدين إلى ما كان عليه واستمر في منصب دزدار القلعة (أي حافظ القلعة) ، إلى حين وفاته سنة (٥٩٥هـ/١١٩٨م) ، وكان له عدة أعمال عمرانية في الموصل منها بناء جامع كبير ومدرسة ورباط وبيمارستان. ابن الأثير : الباهر ، ص ١٧٧ ، ١٩٣ .
- ٧٠ . الكامل: ج٩، ص٢٤٨.
- ٧١ . علي بن انجب بن عثمان المعروف بابن الساعي: الجامع المختصر في عنوان التواريخ والسير، (بغداد، المطبعة الكاثوليكية، ١٩٣٤)، ص٩٥.